بلاد الرافدين والكتاب المقدس
ترابط وتمايز

الأب أيوب شهوان

هل صحيح أن "الكتاب المقدس وُلِدَ في بابل"، كما عنونت مجلة *Le monde de la Bible* إصدارها الرقم ١٦١ (٢٠٠٤)؟ في الواقع، ما زال مفسِّرو الكتاب المقدس، واللغويون، والمؤرِّخون يعيدون النظر في دور بلاد الرافدين في تاريخ الشعب العبري، وفي تحرير قسم من نصوص العهد القديم. فهذا الأخير، ودون أن نمسّ بجوهره على أنه كتاب ملهم، هو أحد عناصر الثقافة الشرق أوسطية. لقد واجه علماء العهد القديم معضلات صعبة تتعلّق بتاريخ وضع نصوصه، وبهوية محرِّريها، وأحيانًا بالأسباب الحقيقية الدّافعة إلى وضعها، والعلاقة بين الآداب البيبلية والآداب المجاورة. أجوبة كثيرة أُعطِيت، وآراء عديدة سُوِّقَت، ومواقف متعارِضة ومعترضة أُعلنت. وفي العقود الأخيرة بدأت تشقّ طريقها الفكرةُ القائلةُ بأنّ العديد من أسفار العهد القديم قد وُضِعت في مرحلة متأخرة، خاصة بعد المنفى، وكذلك أيضًا إبراز بعض الوجوه الرئيسية التي ترقى إلى زمن العودة من المنفى، تلك التي عاشت اختبار النفي إلى بابل، الأمر الذي لعب دورًا محرِّكًا للعديد من المسائل مثل إعادة بناء وحدة شعبٍ منقسم، وهيكل مهدَّم كان له الدور الموحِّدِ والجامع.

أسماء عدّة تشير إلى بلاد ما بين النهرين، أو بلاد الرافدين، من أشور، إلى **كلدو**، **فابل**، **وفارس**، لكن، وتبسيطًا للأمور، الاسم الأكثر شيوعًا هو **بلاد الرافدين**. تتكوّن هذه الأخيرة من **آشور** في الشمال، و**بابل** في الجنوب، مع الإشارة إلى أنّ لنهرَي دجلة والفرات الدورَ الحاسمَ في استيطان شعوب هذه البقعة من الأرض.

إنها إذًا منطقة على ارتباط وثيق بالعهد القديم، ومن خلاله نستطيع أن نتعرّف إلى وجوه عدّة ميّزتها، مثل: عظمة بابل ونينوى، وقساوة المحاربين الأشوريين الدموية والحروب التي شنّوها، والقدرات السحرية للعرّافين البابليين، وثراء تجّارها وتأثيرهم، وترف حياتهم وتنوّع ملذاتها.

وهناك أسماء شهيرة في بلاد الرافدين، لا يجوز لقارىء الكتاب المقدس أن يجهلها، مثل: **حمورابي**، **نبوكدنصر**، **تغلاتفلاسر**، **أشوربانيبال**، **سنحاريب**، الخ.

وهناك **مشاهد منقوشة على الحجر**، بعضها ما زال في الموطن الأصلي في العراق، والبعض الآخر حطّ الرحال في متاحف أوروبية وأميركية وغيرها، حفظت أحداثًا صارت محفورةً في ذاكرة البشرية، مثل الإعداد لمعارك أو المعارك ذاتها، ومركبات الحرب، والحصارات، الانتصارات، والإنجازات،

وصيد الأسود، والإجهاز على الأعداء والمحكومين...؛ يحرس هذه اللوحات الرائعة حرّاس ذات أحجام غير عادية، كالأسود والثيران المجنّحة وذات الخمسة أقدام أحيانًا والشعر المصفّف بإتقان... من كل هذا نستنتج أن الدافعين إلى هذا الإبداع كانوا يسعون إلى تخليد أسمائهم وإنجازاتهم وعظمة حضارتهم، مما يتيح لنا اليوم أن نعرفهم من آثارهم ومآثرهم الباهرة.

لقد ترك لنا سكان بلاد الرافدين كمية كبيرة من **لوحات الآجُرّ** هي مصدر معلومات ومواضيع ثمينة جدًّا، منها انطلق الكثير من الفكر والمعتقد والعادات والتقاليد التي ما زالت حتى اليوم جزءًا مكوِّنًا من حضاراتنا. نذكر، على سبيل المثال، بعضًا ممّا يتعلّق بموضوع هذا الإصدار من مجلة **بيبليا: بلاد الرافدين والكتاب المقدس:**

ففي **ملحمة جلجامش**، وهي الأسطورة الأطول، يذهب جلجامش البطل، ملك أوروك، بعد وفاة صديقه إنكيدو، إلى البحث عن **الحياة الأبدية**؛ قاده بحثُه إلى **أُوتنَفِشتيم**، الذي بقي على قيد الحياة على أثر طوفان حصل. أمّا الطوفان الذي أُرسِل لعقاب البشرية، حسبما جاء في سفر التكوين، فهو واحد من مواضيع **أسطورة أَتْرَحَسِيس**.

وتروي **ملحمة الخلق** بداية العالم وبناء المدينة العظيمة بابل تحت حماية مردوك إلهها.

وهناك أساطير أقصر مثل **هبوط عشتار إلى الجحيم**، حيث تذهب الإلهة **عشتار** لزيارة شقيقتها إِرِشْكِيجَال، ملكة الجحيم، وتتبيّن أنها لم تَعُد قادرة أن تعود إلى عالم الأحياء.

هناك أسطورة مماثلة هي **أسطورة نِرْجَال وإِرِشْكِيجال**، حيث ينزل نِرْجال إلى **عالم لا عودة منه**، إلى الجحيم، ويخلب قلب الملكة هناك.

لكل هذه الكنوز ولغيرها من عطاءات بلاد الرافدين أثرٌ لافت في بعض نصوص العهد القديم، وهذا ما يشكل تواصلاً بشريًا رائعًا، وكأني بشعوب تلك البلاد وغيرها من البلدان المجاورة قد ساهمت في الإعداد للوحي الإلهي بـ"موادها الأولية" الإنسانية السّامية، أدبًا، وتعابير، وصورًا، ومعتقدات، وعادات وتقاليد، وغيرها. لهذا السبب كان هذا العدد من **مجلة بيبليا**، الذي نأمل أن يطلق اهتمامًا علميًا جدّيًا بدراسة الحضارة الرافدينية عامة، وما مدّت به محرِّري العهد القديم خاصة.

فإبراهيم أبو الآباء هو ابن تلك البلاد؛ لقد ترك **أور** الكلدانيين إلى **حاران** حيث أقام قبل أن ينتقل من هناك إلى أرض الأردنّ. هذا ما قد يحملنا على الافتراض أنّ وحدانية الله التي عرفت بداياتها مع إبراهيم، هي ذات جذور رافدينية، وتبلورت من خلال وحي الله لإبراهيم، ومضمونها هو أن الله فريدٌ، وكونيٌّ، وسيّدٌ، وروحيّ.

يفيدنا تفحُّصُ أسفار العهد القديم أن شعوب المنطقة هي متداخلة، وهي التي كوّنت كنعان ثمّ إسرائيل؛ معظمها أتى من بلاد الرافدين ومن المناطق الملاصقة لأرض الفرات؛ فلقد جاء في تث ٢٦:٥ أن العبرانيين كانوا يعرّفون عن ذاتهم بالقول : "كان أبي أراميًّا تائهًا"، أي، على الأرجح، من بلاد الرافدين. ونقرأ في حز ١٦:٤٥: "كانت أمُّك حثّيّة، وأبوك أموريًّا".

هناك أيضًا **الحاضرات الكبرى**، مثل:

- **بابل** الشهيرة ببرجها الذي أوحي بقصة برج بابل (تك٦). إلى عاصمة نبوكدنصر هذه نُفِي بنو إسرائيل، وبقوا فيها إلى أن حرّرهم قورش الفارسي بعد أن استولى عليها؛
- **نينوى**، تقع على الضفة الشمالية من نهر دجلة، تلك "المدينة العظيمة التي بلغ شرُّها الله"، ولكنها تابت بإنذار يونان، وأضحت هكذا شاهدة على محبة الله المخلِّصة لكل البشر.

لقد تلقّى إسرائيل من بلاد الرافدين، وعلى دفعات متلاحقة، الخيرات والمصائب على حدٍّ سواء. من حضارات تلك البلاد استلّ كتّابُ العهد القديم العديد من صورهم وتعابيرهم ورموزهم وحتّى بعض نصوصهم الأدبية، وعنها اقتبس بنو إسرائيل الشيء الكثير من عاداتهم وطرق عباداتهم، وتعلّموا منها طرق التجارة والصناعة والحِرَف، ومدّتهم ميتولوجياتها بأجوبة على تساؤلات، وبإيضاحاتٍ لماورائيات، وبتفاسير

لألغاز تمسّ حياة الإنسان على هذه الأرض وما بعدها.

لذلك نأمل أن يسهم هذا الإصدار من مجلة بيبليا في اكتشاف الروابط الوثيقة بين حضارات بلاد الرافدين المتنوعة والغنية جدًّا، وبين "حضارة" العهد القديم المقتبِسَة ولكن المتمايزة في ذات الوقت، وفي وضع قسم هامّ من أحداث العهد المذكور في إطارها التاريخي والجغرافي، أي أشور، وبابل، ونينوى، مع مختلف الحقب التي توالت هناك، من الأشوريين، والبابليين، فالفُرس. سيكتشف القارىء بالتأكيد، بعد قراءة مواضيع هذا الإصدار، أن بعضًا من جذوره الحضارية والثقافية وحتى الدينية هي ضاربة في العمق في تلك الديار وفي كنوزها التي مدّت البشرية بغناها وبإنجازاتها العظيمة. ستسمح له المقارنة بين بعض النصوص البيبلية وبين نصوص مماثلة من بلاد الرافدين بأن نتأكد أنّ الله يشرق شمسه – شمس المعرفة والحق والجمال والإبداع– على كل الشعوب كما على بني إسرائيل. لكن تبقى الفرادة في الوحي الذي به يكشف الله ذاته

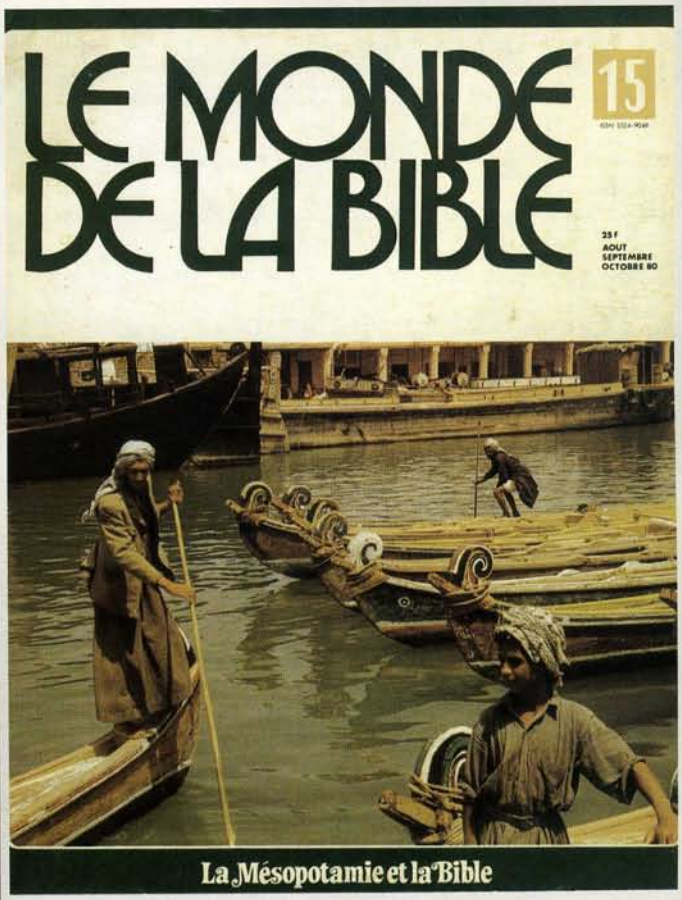

لمن عبد فارتقى، وفي الإلهام الذي يفصح فيه عن إرادته لمختاريه الذين حرّروا الأسفار المقدسة.

لذلك، قد لا ننجح في قراءة بعض نصوص الكتاب المقدس بطريقة علمية ودقيقة إذا أهملنا المعطيات الأدبية المتنوّعة، مع ما تضجّ به من جمالات شعرية ورمزية، ومن غنى فكري، ومن أساطير وملاحم، ومعطيات دينية طبعت إلى حدٍّ ما بعضَ أسفارِ العهد القديم وطريقةَ تفكيرِ محرِّريها.

نودّ ختامًا أن **نهدي هذا الإصدار إلى أبناء العراق**، حافظي هذا التراث العظيم، والرازحين حاليًا تحت ثقل المآسي الهائلة العاصفة ببلادهم، معبّرين لهم بذلك عن تضامننا الأخوي، وعن امتناننا لهم على الشهادة الحسنة التي يؤدّونها في خضمّ الآلام الكثيرة، صانعين هكذا بإيمانهم وصبرهم ورجائهم حضارةً ثمينة من نوع آخر، تكمّل ما أبدعه أجدادهم العظام على مر العصور.